

## الشعر العربي الحديث والتراث

## القرآن الكريم

## دراسة في التناسخ\*

د. عبد النبي مصطفى\*\*

□ مقدمة :

يستطيع المتأمل في طبيعة الأدب العربي الحديث أن يقع فيه على نوعين من المكونات Constituents : داخلية وخارجية : داخلية Internal تشمل البنى Structures اللغوية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية - هذه البنى التي يشكل مجموعها السياق Context الذي يحكم إنتاج هذا الانشاء Discourses اللغوي الذي توظف فيه اللغة على نحو خاص؛ وخارجية External تشمل البنى المتنوعة المتصلة بواقع المواجهة مع أوروبا والعالم بشكل عام - هذه المواجهة المتعددة الوجوه والأبعاد ، والتي تنعكس عادة في الإشارات الضمنية Implicit والصريحة Explicit ، الثقافية وسواها، الى هذا المكون الخارجي ، والتي تدرس من قبل المعنيين بالأدب المقارن بصفتها مؤثراً أجنبياً له دور معين في حفز أنماط Modes من التغيير على مختلف المستويات في هذا الأدب .

وإذا ما رغب المرء في التركيز على واحد من المكونات الداخلية هو اللغة ، فإنه يمكن

\* التناسخ . او تفاعل النصوص . ترجمة لمصطلح Intertextuality .

\*\* عبد النبي مصطفى هو مدرس النقد الحديث ( العربي والأوروبي ) في جامعة دمشق . ومدرس مشارك لمادتي الأدب المقارن و النقد الأدبي في قسم اللغة الانكليزية في جامعة البعث في حمص . حصل على درجة الدكتوراة في النقد المقارن ( عربي - أوروبي ) من جامعة أكسفورد . وله مساهماته المعروفة في مختلف المؤسسات الجامعية والثقافية والاعلامية . نشر أكثر من مائة وخمسين بحثاً ودراسة ومقالة وترجمة باللغتين العربية والانكليزية في دوريات القطر العربي السوري والوطن العربي وأوروبا . وحضر العديد من المؤتمرات المتصلة بعقل تخصصه داخل القطر وخارجه .

أن يشير إلى أن هذه اللغة بالنسبة إلى منشىء هذا الأدب العربي الحديث ليست مجرد نظام لسوي Langue يحكم إنتاج انشائه الفردي Individual discourse ويكفل له الوصول إلى الآخرين وحسب ، بل هي أيضاً أداة للتفكير لها إجراءات وعادات وأعراف معينة تفرض نفسها على مستخدم هذه اللغة - وفوق هذا وذاك ، أن اللغة هي الأداة الأهم من غيرها التي تتجلى من خلالها الثقافة الموروثة لمن يستخدم هذه اللغة . أن ممارسة أية لغة لا يعني مجرد استخدام أداة توصيل وتفكير فقط ، بل انه يتضمن أيضاً استيعاباً لجملة متفاوتة من الثقافة التي دونت فيها . بل أن عملية الاستيعاب هذه تتأثر وتؤثر بمدى استيعاب مستخدم اللغة لها ، حتى أن المرء ليخال أنهما عملية واحدة ، أو أنهما وجهان لعملة واحدة تستهدف استيعاب العالم فينا ومن حولنا ، وإدراكه ، وأمره ، والتحكم فيه .

ان التكوين الثقافي Cultural formation للأديب العربي الحديث يشمل - دون شك - عناصر متنوعة جداً . ولكن ليس ثمة من يماري في أن موروثه الثقافي الذي ينتقل إليه عبر اللغة كما تقدم ، والتي هي من الناحية العملية بالنسبة له على الأقل. مجموعة نصوص Texts أدبية وغير أدبية من مختلف العصور يواجهها هذا الأديب في مختلف مراحل تكوينه الثقافي . ان القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والشعر العربي من الجاهلية إلى العصر الحاضر ، ونصوص التاريخ العربي ، والقصص ، والفكر في مختلف تجلياته ، هي مكونات صغرى لهذا العنصر الذي يتسرب إلى خلفية الأديب الثقافية عن طريق اللغة ، ويتجلى فيما بعد في الانشاء الأدبي نفسه ، في النص الذي ينشئه والذي هو في الحقيقة تراكم نصوص سابقة .

ومعنى هذا أن دراسة مجدية للأدب العربي الحديث لا يمكن أن تتم دون أخذ دور هذا المكون Constituent الداخلي بميز الاعتبار . والواقع أن هذه الدراسة ينبغي أن تشمل الجوانب التالية :

١ - تحديد الشكل الذي يتجلى به هذا المكون الداخلي في النص الجديد أي في الانشاء الأدبي العربي الحديث .

٢ - بيان أصوله من جهة ، والتحويلات التي طرأت عليه في النص الجديد من جهة أخرى .

٣ - ربط هذه التحويلات بالوظيفة الجديدة التي أسندت إليه في معرض إنتاج الدلالة الكلية للنص الجديد .

٤ - الحكم على أهمية هذا المكون الداخلي من خلال تقويم مدى حيوية الوظيفة التي يؤديها في السياق الجديد .

وربما كان من الهام هنا التأكيد على أن دراسة هذه الجوانب ينبغي أن تتم في إطار الدراسة الشاملة للنص الجديد - هذا الإطار الذي تحدده بشكل عام طبيعة هذا النص .

\* \* \*

وما دام هذا اللون من الدراسة لا يزال في مراحله التكوينية الأولى ، وفي طور التجريب ، فإنه ربما كان من الأفضل أن يبدأ المرء ببعض النماذج التطبيقية التي ربما توضح بعض هذه الجوانب المشار إليها آنفاً . وقد تم اختيار نص للسياب أحد أعمدة الشعر العربي الحديث لبيان جوانب تأثير النص القرآني فيه ، ومدى افادة السياب منه . وربما كان من لوازم فائدة دراسة كهذه زعزعة رأي ساد الكثير من دراسات السياب ، وهو أنه مدين أساساً في شعره للمؤثرات الأجنبية التي كانت وراء ما فيه من عبقرية .

\* \* \*

□ القصيدة - النص الجديد :

لأنني غريب

لأن العراق العيب

بعيد ، وأني هنا في اشتياق

إليه ، إليها . . . أناذي : عراق

فارجع لي من ندائي نحيب

تفجر عنه الصدى

أحس بأنني عبرت المدى

إلى عالم من ردى لا يجيب

ندائي ،

وإما هزرت الفصون

فما يتساقط غير الردى :

حجار

حجار وما من ثمار ،

وحتى العيون

حجار ، وحتى الهواء الرطيب

حجار ينديه بعض الدم

حجار ندائي ، وصخر فمي

ورجلاي ريح تجوب القفار

## □ التعليل :

مهما اختلفنا حول طبيعة الأدب ، أو حول ما يشكل أدبيته - على حد تعبير رومان جاكيسون - فإن ثمة اجماعاً على أنه انشاء لغوي توظف فيه اللغة توظيفاً خاصاً ، وهو بمعنى ما نسيج مؤلف من خيوط متنوعة ، مختلفة الشيات والألوان ، والجيد منه نسيج محكم غاية الإحكام ، يصعب تمييز خيوطه المكونة ، وإن كان بالطبع لا يستحيل .

وإذا كان الأدب نسيجاً ، فإن دراسته تغدو تفكيراً لهذا النسيج من أجل تبين مكوناته . فالنص ، أي نص ، هو انشاء في نهاية الأمر ، حصيلة تراكمات لنصوص مختلفة في مخزون المنشئ الثقافي . ومعنى ذلك أن من ضمن مهام الناقد معرفة الطريقة التي تراكمت فيها هذه النصوص لتكون فيما بعد النص الجديد .

والحقيقة أن لكل نص مفتاحاً رئيسياً يمكن من خلاله الوقوع على النقطة الحساسة التي تمكن القارئ - والناقد قارئاً متممناً - من وضع يده على مكوناته ، خيوطه ، عناصره التي تراكمت وكونت النتاج الجديد . اذ تكاد تتجمع في هذه النقطة - نقطة الفك - نهايات الخيوط المشكلة للنسيج . ومن هنا كانت أهمية وضع اليد على هذه النقطة إذ دونها يستفلق النص ، ويحجب دلالاته الأساسية عن مستهلكه ، أو تتعدم عملية التواصل بينه وبين القارئ ، فينصرف الأخير عنه انصراف اليأس ، المتشكك ، الزاهد أحياناً . وبالطبع فإن هذا يحمل خطراً ما بعده خطر على عملية الانتاج الأدبي ، فالأدب في النهاية انتاج بحاجة إلى مستهلك مهما كان شأنه . ولعل إحدى أهم وظائف الناقد تسهيل عمليتي انتاج الأدب واستهلاكه وتطويرهما باستمرار .

\* \* \*

وإذا ما حاول قارئ قصيدة السياب «لأنني غريب» أن يلج إلى عالمها ، أن يقع على مفتاح يكشف له دلالتها الأساسية ، فإنه ربما وجد في موقف القطيعة ، الذي تحمله الغربة ، مع الآخر والعالم ، النقطة الحساسة التي تتجمع فيها نهايات خيوط نسيج القصيدة .

فثمة انقطاع عن الآخر (وطناً وحببية - وأني هنا في اشتياق إليه ، إليها -) ، وهناك مسافة فيزيائية ونفسية بين أنا الشاعر والآخر الذي يهيمه شأن التواصل معه . الشاعر كما تذكر كتب السيرة المتعلقة به كان في بيروت للاستشفاء (١) . ومعنى ذلك أن حاجته إلى التواصل مع الآخر تتكثف ، تتركز - فالمرض ضعف ، شعور بالمعجز وبال الحاجة إلى الآخر ، والغربة كذلك ضعف ، شعور بالمعجز والحاجة إلى الآخر . وعندما يتزامن ، يتكثف الجثن نحو الآخر ، ويتجمع في بؤرة تصدر عنها هذه الصرخة الضارعة :

أنادي : عراق

ولكن ما هي حصيلة هذا التمدد باتجاه الآخر ، وهذا النداء الحار له . أنها النحيب ،

رجع الموت ، رجع عالم من ردى لا يجيب النداء . وهكذا يتممق الشمور بالقطيعة ،  
ويكتسب مأساوية جديدة تضاف الى مأساوية الموقف الأساسي (تزامن الغربة والمرض) .

ان الشمور بالانقطاع عن الآخر (وطناً وحيوية) واستحالة التواصل معه بسبب سيادة  
الموت ، يضع الشاعر في موقف يشبه الى حد كبير موقف السيدة مريم التي تدرج انقطاعها  
عن الآخر ، على نحو مماثل .

ولنقرأ ما ورد من آيات كريمة بشأنها . يقول الله عز وجل :

« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا \* فاتخذت من دونهم  
حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً \* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن  
كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً \* قالت أنى يكون لى غلام ولم  
يمسننى بشر ولم اك بغياً \* قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس  
ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً \* فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً \* فأجاءها المخاض  
إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا \* فنادها من تحتها ألا  
تعزني قد جعل ربك تحتك سرياً \* وهزي إليك الجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً \*  
فكلي واشربي وقرّي عيناً . . . » (٢) .

والحقيقة أن نقاط التشابه في الموقفين لا تقتصر على الانقطاع عن الآخر ، ذاك  
الانقطاع المتكثف تدريجياً (السيدة مريم تنتبذ من أهلها مكاناً شرقياً : وتتخذ من دونهم  
حجاباً : وتنتبذ بعد حملها بجنينها مكاناً قصياً . والسياب منقطع عن الوطن والخيبة  
لقربته ، ومنقطع عنهما بضعفه وعجزه لمرضه) ، بل تشمل كذلك حضور الموت (السيدة مريم  
تتمناه لنفسها ، هو شفاء دائها الوحيد (٣) ، والسياب يضرع الى عالم من ردى لا يجيب ،  
وهو الى جانب ذلك يرقب في مرضه شبحه الذي يلوح في الأفق القريب) . وأهم من ذلك  
كله مأساوية الموقف نتيجة تمسق الشمور بالحاجة الى الآخر من ناحية ، ومعرفة استحالة  
تواصل كهذا من ناحية أخرى بسبب طبيعة الظرف الخاص بكليةما (البعد الفاصل بين  
بيروت وبغداد لدى السياب المريض العاجز ، والحمل غير المهود ، والذي لا سبيل الى  
تفسيره هو عقبة التواصل مع الآخر لدى مريم) .

مهما كان الأمر فان لمأناة السيدة مريم نهاية ممكنة . هي ولادة السيد المسيح الذي  
سيقوم بشرح كل شيء ، وبذلك يعيد قنوات التواصل بين أمه والآخر . وفوق ذلك فانه  
بمجرد ولادته سيحمل عزاء من نوع ما للسيدة مريم . ومعنى هذا ان ثمة ما يمكن أن تنتظره  
في المستقبل القريب ، وفي هذا عون من نوع ما على تحمل ما هي فيه . ولكن يبدو أن ذلك  
كله لم يكن كافياً للاطمئنان عن السيدة مريم بالنسبة للخالق الرحيم وهكذا ناداها مناد  
« من تحتها ألا تعزني قد جعل ربك تحتك سرياً \* وهزي إليك الجذع النخلة تساقط  
عليك رطباً جنياً \* فكلي واشربي وقرّي عيناً » .

إن لحظة حضور الموت الممكن (الموت المرغوب فيه شفاء لدى السيدة مريم ، والموت المنادى ، والمهدد لدى السياب) جعلت السياب مباشرة يفكر في هز الفصون الذي قد يحمل له بعض ما حمله للسيدة مريم، وثمة ما يجعل هذا المزمّل اقرب وأدنى فهو محمول على الفصون وهزها اسهل وثمرها اقرب متناولاً . ان مأساويه موقف السياب التي تضارع الي حد بعيد مأساوية موقف السيدة مريم الجآته الي الامل الوحيد المتاح أمامه ، خاصة انه لم يناده مناد يطمئنه ، أو يشير عليه بهز الفصون . وهكذا كان ، هز السياب الفصون طمعا في الرطب الجني ، في ان ياكل ويشرب وتقر عينه . ولكن ماذا كانت الحصييلة ؟

انها لم تكن غير تسميق مأساة الانقطاع عن الآخر ، اذ هو غير موجود . ليس هناك غير العجارة . الثمار حجارة ، والعيون حجارة ، والهواء الرطيب حجارة . ونداؤة كذلك حجارة . بل انه ليس ثمة من دلالة على وجود حياة ما في هذا الدفق من العجارة غير بقايا الدم - دمه هو ، دليل الجرح ، دليل المأساة . وهكذا يسود التحجر ، والإفقار ، كل ما يحيط بالسياب . وقد كان يطعم في الرطب الجني ، في ان يطعم ويشرب ، وفي ولادة تحمل معها السلام ، وقرارة النفس ، وطمأنينتها وسكينتها . ان حس مأساته يتعمق ، فهو مشرف على الموت ، وهو لذلك اقرب الي عالمه وما فيه ومن فيه . من هذا العالم الحي بما فيه ومن فيه .

\* \* \*

ان قصيدة السياب . كما يلاحظ القارئ ، تبدأ بذرة هي لحظة الانقطاع عن الآخر وطننا وحببته . ومع نمو القصيدة تتسع اللحظة ويتعمق الاحساس بها ، حتى ان الشاعر لا يكاد يظفر بالصدى ، برجع نداءه ، اذ لا يأتيه الا النحيب الآتي من عالم الموت ، متعدداً هو أيضا باتجاهه ليأتي عليه بشكل أو بآخر .

وكأخر سهم في جمبة الشاعر الذي يصارع الموت . يهز الفصون ، وبدلاً من الرطب الجني ، والطعام والشراب والسكينة ، تأتيه العجارة التي تنهال على رأسه وتتندى بدمه ، ويكاد انكون كله يتحجر ، يتحول الي حجارة (هي المعادل الموضوعي لانعدام استجابة الآخر ، ليقينية القطيعة بينه وبين الشاعر) تجسد الانقطاع وتشير الي استحالة التواصل .

وربما كان من أهم ما يلفت النظر في هذه القصيدة هو الاستخدام العبقري للصورة القرآنية . والواقع أن السياب يطورها تطويراً يمليه عليه موقفه هو . ويحاول أن يزيل حجاب الألفة عنها ، ويخون بذلك توقعات القارئ . وبالتالي يقدم له في النهاية صورة جديدة على نحو مشير . انه يكاد يفجرها حيوية وطاقمة تعبيرية ، بل يجعلها محوراً للقطيعة التي تحيط به ، اذ تجسد ما يبدو في ظاهره الطريق الي تقيض هذه القطيعة ولكنها ترتد في النهاية لتصبح أقصى التطرف في عملية التواصل السلبي بينه وبين الآخر . ان الانسان

ليحن شوقاً ، ويذوب وجداً نحو الآخر ، وانه ليضرع اليه ، وأقصى ما يمكن أن يتوقعه من سلبية منه هو الصمت المميت القاتل . ولكن أن يتلقاه بالحجارة التي تتراكم عليه ، وحوله ، حتى لتكساد تأتي على الكون كله ، فذلك تواصل هو في جوهره قمة القطيعة ، تكثيف لها ما بعمده تكثيف ، وتركيز الى الدرجة القصوى التي ما بعمدها تركيز . هكذا تنمو القصيدة ، وهكذا تتعمق القطيعة حتى تشمل الكون ، ويقف الشاعر وحيداً ، ويفرق فرقاً شديداً ، وتتحول رجلاه الى ريش تجوب القفار .

جامعة دمشق  
أيار ١٩٨٥

\* \* \*

□ هوامش :

١ - انظر :

د- عبد الكريم حسن ، الموضوعية البنيوية : دراسة في شعر السياب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ص ( ٢٨٤ - ٢٨٦ ) . و

د- احسان عباس ، بدر شاكر السياب : دراسة في حياته وشعره ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٧ ، ص ص ( ٣٤٥ - ٣٦٧ ) .

٢ - القرآن الكريم ، سورة مريم ، الآيات ( ١٦ - ٢٦ ) .

٣ - اشارة لقول المتنبي :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانياً

\* \* \*